# الحملات الصليبية وتأثيرها على الدولة الإسلامية

م.م صفا صالح حميد
جامعة الانبار / كلية الصيدلة
safa.s.hameed@uoanbar.edu.iq

## الملخص

تمثل الحملات الصليبية مرحلة محورية في التاريخ تركت آثارًا سياسية وعسكرية وحضارية عميقة في العالم الإسلامي. يتناول هذا البحث السياقات الدينية والسياسية في أوروبا التي مهدت لانطلاق هذه الحملات، ويحلل دوافعها المتعددة، ويستعرض أبرز المواجهات العسكرية مثل الحملة الصليبية الأولى، ودور صلاح الدين الأيوبي في الحملة الثالثة. كما يبحث في التداعيات السياسية على الدولة الإسلامية، من تفكك القوى وصعود أخرى جديدة، إلى التبادل الثقافي والمعرفي بين الشرق والغرب. وقد تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستناد إلى مصادر تاريخية إسلامية وغربية لتقديم رؤية شاملة لتأثير الحملات الصليبية في الحضارة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية:(الحملات الصليبية، الدولة الإسلامية، صلاح الدين الأيوبي).

# The Crusades and their impact on the Islamic State

Safa Salih Hameed
University of Anbar College of pharmacy
safa.s.hameed@uoanbar.edu.iq

## Abstract

The Crusades greatly changed the political, military and cultural life of the Islamic world. This research examines the Europe of its time, explains the religious and political background that initiated the Crusades, studies the Crusaders' motivations and points out significant clashes such as the First Crusade and Salah al-Din's role in the Third Crusade. Researchers also analyze what the Crusades meant for political systems in the Islamic world, in terms of breakdown and reorganization of government and the flow of information and culture between the two regions. Using sources from Islamic and Western

history, the research uses descriptive-analytical techniques to assess the wide-ranging effects of the Crusades on Islamic civilization.

Keywords: (Crusades, Islamic State, Saladin).

المقدمة

شهد التاريخ الإسلامي سلسلة من الأحداث المصيرية التي شكّلت ملامحه على مر العصور، وكانت الحملات الصليبية من أبرز هذه الأحداث التي أثرت في كيانه السياسي والاجتماعي والثقافي. فقد مثّلت هذه الحملات نموذجًا فريدًا من الحروب الدينية ذات الطابع الإيديولوجي، والتي جاءت نتيجة تفاعل مركب بين دوافع دينية، وأخرى اقتصادية وسياسية، وأسفرت عن مواجهات طويلة بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، امتدت آثارها لقرون طويلة بعد انتهائها.

لقد كان لهذه الحملات أثر بالغ على بنية الدولة الإسلامية، إذ أدت إلى إعادة تشكيل الخريطة السياسية في المشرق الإسلامي، وأسهمت في نشوء تحالفات، وتبلور قيادات تاريخية برزت في التصدي لهذه التحديات، مثل القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي. كما أفرزت هذه المرحلة مظاهر ثقافية وحضارية عديدة، تمثلت في الاحتكاك المباشر بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وهو ما أنتج حركة تبادل معرفي وثقافي كانت لها آثار ممتدة في التاريخ الإنساني.

وانطلاقًا من أهمية هذا الحدث التاريخي وما خلفه من تداعيات مستمرة، يهدف هذا البحث إلى تناول أهمية الحملات الصليبية بوصفها ظاهرة تاريخية مركّبة، وذلك من خلال تسليط الضوء على أسبابها ودوافعها، وتحليل مجرياتها، وبيان أبرز نتائجها وتأثيراتها المتعددة في الدولة الإسلامية.

أهمية الموضوع

تُعد الحملات الصليبية من أهم الحروب الدينية التي كان لها تأثير بالغ في التاريخ الإسلامي، إذ ساهمت في إعادة تشكيل ملامح العالم الإسلامي سياسيًا وعسكريًا وثقافيًا، وخلقت حالة من الصدام والاحتكاك بين حضارتين مختلفتين، لا تزال تداعياته حاضرة حتى اليوم.

إشكالية البحث

تُطرح الإشكالية المركزية للبحث على النحو الآتي:

- كيف أثرت الحملات الصليبية في بنية الدولة الإسلامية؟
- وما هي ردود الفعل الإسلامية تجاه هذه الحملات؟

أهداف البحث

١. دراسة الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية التي قادت إلى اندلاع الحملات الصليبية.
٢. تحليل أبرز مجريات هذه الحملات وتأثيرها العسكري في بلاد المسلمين.
٣. بيان الانعكاسات السياسية والثقافية للحملات الصليبية في العالم الإسلامي.

منهجية البحث

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يقوم على وصف الظاهرة التاريخية المتمثلة في الحملات الصليبية، وتحليل أبعادها ونتائجها، وذلك من خلال الاستعانة بالمصادر التاريخية الموثوقة من كلا الجانبين: الإسلامي والغربي، لتحقيق فهم أكثر توازنًا وشمولًا.

## المبحث الأول

## الخلفية التاريخية والدينية للحملات الصليبية

تمثل الخلفية الدينية والسياسية لأوروبا في العصور الوسطى أساسًا مهمًا لفهم نشأة الحملات الصليبية. فلم تكن هذه الحملات حدثًا عارضًا، بل كانت وليدة عوامل تراكمت عبر الزمن، تمثلت في تحولات عقائدية، وطموحات سياسية، وتوترات اجتماعية واقتصادية. ومع تصاعد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وتحولها إلى مركز سلطة دينية ودنيوية، ظهرت ما عُرف بـ"الحرب المقدسة" بوصفها مبررًا لإطلاق حملات عسكرية تهدف إلى استعادة الأراضي المقدسة من "الكفار"، كما وصفتهم الأدبيات الغربية آنذاك. لذا، يُعد فهم الظروف التي مهّدت لهذه الحملات أمرًا جوهريًا في تتبّع أثرها في الدولة الإسلامية.

### المطلب الأول: الظروف الدينية والسياسية في أوروبا قبل الحملات

#### الفرع الأول: النزعة الدينية والحماسة الكنسية للحرب المقدسة

شهدت أوروبا في القرون الوسطى (ما بين القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي) حالة من التغيّر الديني والاجتماعي العميق، تمثلت في تنامي سلطة الكنيسة الكاثوليكية، وتغلغلها في تفاصيل الحياة اليومية للناس. وقد ساعدت هذه النزعة الدينية المتشددة، المدعومة بمفاهيم مثل "الخلاص" و"الفداء"، على تأجيج الحماسة للحرب المقدسة، وتحويلها من قضية سياسية إلى واجب ديني مقدس.في هذه المرحلة، اتخذت الكنيسة موقعًا قياديًا في توجيه وقيادة المجتمع الأوروبي. فقد أصبح البابا هو المرجع الأعلى ليس فقط في الشؤون الدينية، بل أيضًا في الشؤون السياسية والعسكرية. وكان من أبرز مظاهر هذه السلطة إصدار صكوك الغفران لأولئك الذين يشاركون في الحروب الصليبية، واعتبار المشاركة فيها سببًا مباشرًا لغفران الخطايا ودخول الجنة. وقد لعب هذا الدور النفسي والديني دورًا كبيرًا في تجنيد عشرات الآلاف من الجنود والفلاحين، وحتى الأطفال، للمشاركة في هذه الحروب و إنَّ فكرة الحرب المقدسة لم تولد في فراغ، بل جاءت نتيجة تطور لاهوتي طويل، شارك فيه مفكرون ورجال دين غربيون، مثل القديس أوغسطين، الذي وضع الأساس النظري لفكرة "الحرب العادلة"، والقديس برنارد دي كليرفو، الذي صاغ مفهوم "القتال باسم الرب" في خطبه الشهيرة التي ألقاها لتعبئة الناس للحملات الصليبية. كما ظهرت أدبيات دينية تؤكد أن استرداد "الأراضي المقدسة" هو واجب مقدس على كل مسيحي، لا يقل أهمية عن أداء الشعائر الدينية الأخرى (قاسم، ١٩٨٤، صفحة ٧٥)، وقد ساهمت الخطابات الكنسية الحماسية، التي كانت تلقى في الكنائس والساحات العامة، في تحويل الحملة الصليبية إلى حركة جماهيرية، حيث اندفع الآلاف من مختلف الطبقات الاجتماعية، من النبلاء حتى الفلاحين الفقراء، استجابة لنداء البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥م، حين قال":يا شعب الفرنجة، يا شعب الله المختار، انطلقوا لإنقاذ الأرض المقدسة، فهذه إرادة الرب"!

شكل هذا النداء نقطة تحول تاريخية، إذ سرعان ما تمّ تنظيم الحملة الصليبية الأولى، بمشاركة واسعة من ممالك أوروبا الغربية، مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا، تحت راية "الصليب"، التي رُفعت شعارًا للحرب، وارتداها الجنود على دروعهم وثيابهم، كانت أوروبا في تلك الفترة تعاني من أزمات اقتصادية، وكثافة سكانية متزايدة، ونظام إقطاعي متصلّب، ما جعل العديد من الفلاحين والفرسان يرون في

الحملة الصليبية فرصة للخلاص من واقعهم المضطرب، وتحقيق الثروة أو النفوذ، أو على الأقل الظفر بحياة جديدة في المشرق (أمين، ١٩٦٥، صفحة ٦٣).

كما أن طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة في أوروبا آنذاك كانت تختلف جذريًا عن ما هو سائد اليوم. فقد كانت الكنيسة تتصدر المشهد السياسي والعسكري، وكانت تُمنح لها صلاحيات قضائية ومالية هائلة، وقد سعت إلى بسط نفوذها على الأراضي المقدسة باعتبارها مركزًا روحيًا وتاريخيًا، وذلك في مواجهة التمدد الإسلامي الذي كان قد حقق إنجازات باهرة في المجالات العسكرية والعلمية والثقافية. جدير بالذكر أن الكنيسة كانت توظف كذلك عناصر الأسطورة والتخويف والتقديس في دعايتها للحروب، حيث تم تصوير المسلمين (أو"السراسين" كما كانوا يُسمونهم) كأعداء متوحشين، يهددون الكنيسة والعقيدة المسيحية. هذا التصوير المبالغ فيه عزز من فكرة "الحرب التطهيرية"، ورفع الحملة من مجرد نزاع سياسي إلى مهمة لاهوتية مقدسة يجب خوضها دون تردد.كما أن الحج إلى القدس – وهو أحد الشعائر الدينية الكبرى – قد أصبح محفوفًا بالمخاطر بعد أن خضعت المدينة للسيطرة الإسلامية، ما شكّل حافزًا إضافيًا لإثارة الرأي العام الأوروبي، الذي رأى في استعادة القدس واجبًا مقدسًا لتحرير "الضريح المقدس" ولم تقتصر الحماسة الدينية على الرجال فقط، بل شاركت فيها النساء أيضًا، سواءً من خلال الدعم المادي، أو في بعض الأحيان من خلال الانضمام إلى الحملات برفقة أزواجهن أو كجزء من "الحملة الشعبية". وهذا يعكس مدى رسوخ الفكرة الدينية في المخيال الأوروبي آنذاك (الصلابي، ٢٠١٢، صفحة ٨٢).

ومن الأمور الجديرة بالتنويه أيضًا، أن هذه النزعة الدينية لم تكن دائمًا روحانية نقية، بل كانت مشوبة بطموحات سلطوية، حيث سعت الكنيسة إلى تعزيز مكانتها على حساب الملوك والنبلاء، وهو ما انعكس في طبيعة قيادة الحملة الصليبية، حيث تم تهميش بعض الزعماء العلمانيين لصالح القيادات الكنسية.

الفرع الثاني: الأوضاع السياسية والاجتماعية في أوروبا ودورها في تعبئة الجيوش

إنَّ فهم الخلفيات السياسية والاجتماعية لأوروبا قبيل انطلاق الحملات الصليبية يُعدّ أمرًا ضروريًا لفهم طبيعة التشكيل العسكري والاجتماعي لهذه الحملات، والدوافع غير الدينية التي أسهمت في حشد الجيوش وتوجيهها نحو المشرق الإسلامي. فقد كانت القارة الأوروبية في نهاية القرن الحادي

عشر تمرّ بمرحلة من التحولات الكبرى على المستوى السياسي والاجتماعي، ما جعل فكرة "الحملة الصليبية" تبدو للكثيرين فرصة للخروج من الأزمات الداخلية والانطلاق نحو آفاق جديدة، تم تبريرها دينيًا.

أولًا: الانقسام السياسي الأوروبي والنزعة نحو التوسع

عانت أوروبا في تلك المرحلة من التمزق السياسي، حيث لم تكن هناك وحدة سياسية مركزية تجمع مختلف الممالك والإمارات، بل كانت تتألف من كيانات متفرقة يحكمها ملوك ونبلاء يتنازعون السيطرة على الأراضي والثروات. وفي ظل غياب سلطة موحدة، برزت الكنيسة الكاثوليكية كمصدر وحيد للاستقرار والتوجيه، مستفيدة من غياب التوازنات السياسية لتعزيز دورها كمرجعية روحية وعسكرية.وقد وجدت الكنيسة أن توجيه طاقة الأمراء والفرسان نحو "عدو خارجي" يمثل حلاً ناجعًا للتخفيف من النزاعات الداخلية المتكررة، لاسيما في ظل الحروب الإقطاعية التي كانت تفتك بالقرى والمدن الأوروبية. وهكذا، جاءت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٥م كوسيلة لتوحيد القوى المتناحرة ضمن مشروع عسكري مشترك ذي طابع ديني، كانت هناك رغبة حقيقية لدى بعض القوى الأوروبية في توسيع نفوذها إلى خارج حدودها الجغرافية. فقد مثّلت أراضي المشرق، لا سيما بلاد الشام وفلسطين، هدفًا مغريًا لما تمتاز به من موقع استراتيجي وثروات زراعية وتجارية، جعلتها محط أنظار الطامعين من الأمراء والفرسان، الذين وجدوا في الحملة الصليبية وسيلة لتأسيس إمارات جديدة لهم بعيدًا عن الصراعات الداخلية في أوروبا (عمران، ٢٠٠٠، صفحة ١٢٣).

ثانيًا: النظام الإقطاعي وتداعياته الاجتماعية

شكّل النظام الإقطاعي في أوروبا أساس البنية الاجتماعية والسياسية آنذاك، حيث كانت الأراضي الزراعية موزعة بين طبقة النبلاء، بينما عاش الفلاحون (الأقنان) تحت وطأة العمل القسري وغياب الحقوق. وقد أدّى هذا النظام إلى خلق فجوة اجتماعية عميقة بين الطبقات، كما أنتج أزمات اقتصادية خانقة، تمثلت في المجاعات، وارتفاع الضرائب، وانعدام الفرص في هذا السياق، شكّلت الحملة الصليبية فرصة لطبقات متعددة:

- الفرسان الإقطاعيون رأوا فيها وسيلة لتوسيع رقعة نفوذهم خارج أوروبا.

- الفلاحون والفقراء رأوا فيها مخرجًا من البؤس اليومي، وحلمًا بحياة أفضل في "الأرض المقدسة"، حيث رُوّج لوجود خيرات وثروات عظيمة في المشرق الإسلامي.

كما أن الحروب الصليبية كانت تُروّج بوصفها "رحلة خلاص"، ما جعلها جذابة حتى لغير المقاتلين، فشارك فيها الحرفيون، والنساء، بل وحتى الأطفال في بعض الحملات، خصوصًا في الحملة الصليبية الشعبية التي انطلقت دون تنظيم عسكري رسمي (معلوف، ١٩٨٣، صفحة ٤٠).

ثالثًا: دور الملوك والأمراء في تعبئة الجيوش

رغم أن الحملة الصليبية الأولى جاءت بمبادرة من البابا أوربان الثاني، فإن انخراط الملوك والأمراء في الحملات اللاحقة كان حاسمًا. فقد رأى العديد منهم في هذه الحملات فرصة لتعزيز شرعيتهم السياسية، وتوسيع ممتلكاتهم، والتخلّص من الخصوم الداخليين عبر إرسالهم إلى الجبهة.

كما قدّمت الكنيسة حوافز سياسية واقتصادية مهمة للملوك والنبلاء المشاركين، من أبرزها:

- صكوك الغفران، التي تعني غفران الذنوب للمقاتلين.
- الإعفاءات الضريبية للمشاركين وعائلاتهم.
- الاحتفاظ بالأراضي التي يتم الاستيلاء عليها كحق مكتسب.

وقد تجلّى هذا الدعم في مشاركة شخصيات بارزة في الحملات مثل:

- غودفري دي بويون، الذي أصبح أول حاكم مسيحي للقدس.
- ريتشارد قلب الأسد، ملك إنجلترا الذي شارك في الحملة الثالثة.
- فريدريك بربروسا، إمبراطور ألمانيا، الذي قاد جيشًا كبيرًا قبل أن يموت في الطريق.

رابعًا: الإعلام الديني والتعبئة الجماهيرية

لعب رجال الدين دورًا أساسيًا في تعبئة الجيوش، من خلال الخطب النارية، والوعظ الديني في الكنائس، التي ربطت بين "تحرير القدس" وبين "الخلاص الأبدي". كما انتشرت القصص والأساطير التي تبالغ في وصف معاناة الحجاج المسيحيين في الأراضي المقدسة، وما يُقال عن "انتهاك المقدسات" من قبل المسلمين، مما ألهب مشاعر الجماهير الأوروبية (حبشي، ١٩٥٨، صفحة ٢٧).

ولم يكن الإعلام الديني في ذلك الوقت مقتصرًا على الشفاهة، بل كُتبت النصوص والخطب، ووزعت رسائل بابوية، ونسجت روايات خيالية حول كنوز القدس، وحراسها الأسطوريين، مما جعل فكرة "الحرب المقدسة" تتغلغل في وجدان الناس بوصفها مهمة سماوية.

خامسًا: العوامل الاقتصادية في دفع الجيوش

تُعد الأسباب الاقتصادية من أهم الدوافع غير المعلنة التي لعبت دورًا في تعبئة الجيوش الصليبية. فقد عانى العديد من الممالك الأوروبية من أزمات اقتصادية مزمنة، منها:

- انخفاض إنتاجية الأراضي الزراعية.
- تضخم عدد السكان.
- قلة الموارد المعدنية والتجارية.
- تفاقم الديون بين الإقطاعيين.

أصبحت الحملات الصليبية بمثابة "صمام أمان" يُخفف الضغط عن الداخل الأوروبي. فالمقاتل الذي يذهب إلى المشرق يُمكن أن يُعفى من ديونه، أو يحصل على غنائم، أو على منصب في إحدى الإمارات الصليبية التي ستُقام على الأراضي الإسلامية (عوض، ٢٠٠٠، صفحة ٦٤).

المطلب الثاني: دوافع الحملات الصليبية على الدولة الإسلامية

لم تكن الحملات الصليبية حركة عسكرية عفوية، بل جاءت نتيجة تفاعل مركب بين دوافع متعددة ومتداخلة، دينية واقتصادية وسياسية، دفعت أوروبا إلى خوض سلسلة من الحروب المنظمة ضد العالم الإسلامي. وقد لعبت البابوية والتحالفات بين القوى الأوروبية دورًا محوريًا في صياغة مشروع هذه الحملات والترويج له، بل وتنفيذه عمليًا على مراحل. وسنناقش فيما يلي الدوافع الكبرى التي كانت خلف هذه الحملات:

الفرع الأول: الدوافع الدينية والاقتصادية والسياسية

أولًا: الدوافع الدينية

كانت الدوافع الدينية هي الأكثر حضورًا في الخطاب الرسمي للحملات الصليبية، وقد تم الترويج لها بقوة من قبل الكنيسة الكاثوليكية. فقد اعتبرت الكنيسة أن تحرير "القدس" وسائر الأماكن

المقدسة من أيدي المسلمين هو واجب ديني مقدس على كل مسيحي قادر على حمل السلاح. وقدّمت المشاركة في الحملات على أنها "عمل فدائي" يُكفّر الذنوب ويضمن الخلاص الأبدي.

كما ارتبطت هذه الدوافع بتطوّر مفاهيم لاهوتية مثل "الحرب المقدسة"، والتي جعلت من العنف وسيلة لنصرة العقيدة، في خرق واضح لمبادئ المسيحية الأولى. وتم تبرير القتل وسفك الدماء تحت راية "الصليب"، واعتُبر مقاتلو الحملات الصليبية بمثابة "جنود المسيح" وقد استغل رجال الدين الشعور العام بالخوف من "الكفار"، وخصوصًا المسلمين، حيث صوّرتهم الدعاية الدينية كأعداء متوحشين يدنّسون الأماكن المقدسة، ويضطهدون الحجاج المسيحيين. فباتت الحرب عليهم ليست خيارًا، بل واجبًا عقائديًا (الطويل، ٢٠٠٨، صفحة ٣٧).

ثانيًا: الدوافع الاقتصادية

على الرغم من الطابع الديني الظاهري، فإن الدوافع الاقتصادية كانت حاضرة بقوة، وإن لم تكن تُذكر صراحة في الخطابات البابوية. فقد كانت أوروبا آنذاك تعاني من ضغط سكاني، وشح الموارد، وانغلاق الأسواق الداخلية. وبالمقابل، كانت بلاد الشام وبلاد المسلمين عمومًا تتميز بموقعها الاستراتيجي، وثرواتها الزراعية، وازدهار طرق التجارة التي تربط بين الشرق والغرب.

وقد شكّلت الحملة الصليبية فرصة مغرية للفرسان والنبلاء الفقراء الذين لا يملكون أراضي، للسيطرة على ممتلكات جديدة في المشرق، وإنشاء إمارات وإقطاعيات. كما استُخدمت الوعود بالغنائم والثروات كوسيلة لتجنيد المقاتلين و أما المدن التجارية الكبرى في أوروبا، مثل جنوة والبندقية وبيزا، فقد دعمت هذه الحملات بقوة، رغبة في السيطرة على الموانئ والتجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط. وقد حصلت هذه المدن لاحقًا على امتيازات اقتصادية وتجارية كبيرة بعد نجاح بعض الحملات (الطاهري، ٢٠٠٦، صفحة ٦٩).

ثالثًا: الدوافع السياسية

أما الدوافع السياسية، فقد تركزت في رغبة الكنيسة الكاثوليكية بتعزيز هيمنتها على الملوك والأمراء الأوروبيين، وتوحيد القوى المتفرقة تحت قيادة دينية عليا. فالحملة الصليبية الأولى جاءت في سياق صراع طويل بين الكنيسة والإمبراطوريات، مثل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، حيث أرادت البابوية أن تُثبت أنها المرجعية العليا في العالم المسيحي.

كما أن عددًا من الملوك الأوروبيين رأوا في هذه الحملات وسيلة للتخلّص من النزاعات الداخلية، أو تصدير الأزمات نحو الخارج. وشاركوا فيها طمعًا في توسيع نفوذهم الشخصي، وكسب أراضٍ جديدة في الشرق وبذلك كانت الحملات الصليبية بمثابة تحالف بين السلطة الدينية التي أرادت بسط هيمنتها الروحية، والسلطة السياسية التي سعت للتوسع وكسب القوة، والسلطة الاقتصادية التي طمحت للثروات والأسواق.

الفرع الثاني: دور البابوية والتحالفات الأوروبية في التخطيط للحملات

أولًا: المبادرة البابوية لإطلاق الحملة

لعبت البابوية الكاثوليكية دورًا مركزيًا في إطلاق الحملات الصليبية، خاصة مع البابا أوربان الثاني، الذي دعا صراحةً في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م إلى حملة عسكرية لتحرير القدس. وكان خطابه ناريًا، يمزج بين العقيدة والوعيد، إذ قدّم المسلمين على أنهم أعداء الدين، ودعا المسيحيين إلى "نصرة الرب"، واعدًا من يشارك بغفران الخطايا وكانت هذه الدعوة البابوية خطوة محسوبة تهدف إلى تعزيز مركز الكنيسة مقابل تراجع سلطتها في بعض المناطق الأوروبية، لا سيما بعد الصراع مع الأباطرة في مسألة "حق التعيين البابوي". وبهذا المعنى، كانت الحملة الصليبية الأولى أيضًا محاولة لإعادة التوازن الداخلي في العالم المسيحي، من خلال تصدير الصراع إلى الخارج (الواعي، ١٩٩٣، صفحة ٣٤).

ثانيًا: تنظيم التحالفات بين الممالك الأوروبية

ما لبثت أن تبنّت القيادات الملكية والإقطاعية الأوروبية هذه الدعوة، وانخرطت في تنظيم الحملة الصليبية. وتم تشكيل تحالفات عسكرية بين ممالك فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وغيرهم، تحت مظلة الكنيسة.

ورغم أن هذه التحالفات كانت مؤقتة وهشة أحيانًا، إلا أنها استطاعت تجاوز الخلافات الداخلية أمام الهدف "المقدس" المشترك. وقد لعبت المصالح السياسية دورًا في تحديد شكل التحالفات، ففي بعض الأحيان كانت الحملات وسيلة لفرض الهيمنة السياسية بين الملوك أنفسهم، وليس فقط ضد المسلمين وقد تكوّن هيكل الحملة من جيوش متعددة بقيادات مستقلة، يجمعها فقط الهدف الديني

العام. وهذا ما يفسر التنافس الذي كان قائمًا أحيانًا بين القادة الصليبيين أنفسهم، مثل التنافس بين ريتشارد قلب الأسد وفيليب الثاني ملك فرنسا في الحملة الثالثة.

ثالثًا: الدعم اللوجستي والاقتصادي من الكنيسة

قدّمت الكنيسة دعمًا واسعًا للحملات من خلال:

- تأمين التمويل من خلال فرض ضرائب خاصة على رجال الدين والعامة.
- توفير المؤن والسفن من خلال التعاون مع المدن التجارية مثل جنوة والبندقية.
- حشد الجماهير من خلال الخطب والدعاية المكثفة في الكنائس.

وقد أنشأت البابوية "المنظومة الصليبية" التي أصبحت لاحقًا مؤسسة شبه دائمة في أوروبا، تُستدعى كلما دعت الحاجة لمواجهة "التهديد الإسلامي" (حبشي ح.، ٢٠٠٠، صفحة ٧١)

رابعًا: التحالفات الاقتصادية والسياسية مع المدن التجارية

كان للمدن الإيطالية البحرية، وعلى رأسها البندقية، دور محوري في الدعم اللوجستي. فقد أمدّت هذه المدن الحملات بالسفن والمؤن، مقابل الحصول على امتيازات تجارية حصرية في الأراضي التي تُحتل، كما حصل لاحقًا في موانئ أنطاكية وعكا وغيرها.

كما عقدت بعض القوى الأوروبية تحالفات مع بعض الأقليات المسيحية في المشرق، أو حتى مع بعض القوى المحلية المناوئة للخلافة العباسية والفاطمية، بهدف تسهيل مرور الجيوش وتحقيق مكاسب سياسية مؤقتة.

خامسًا: الطابع المؤسسي للحملات الصليبية

ما يميّز الحملات الصليبية هو أنها لم تكن حروبًا عشوائية، بل كانت منظمة ومؤسسية، يقودها رجال دين كبار، وتحظى بدعم البابوية، وتُنفذ بناءً على قرارات كنسية. وقد أنشأت البابوية شبكات متكاملة من المندوبين، والوعّاظ، والجباة، لتنظيم هذه الحملات من كافة جوانبها.

ومع مرور الوقت، تطوّرت هذه الحملات لتشمل حملات صليبية ضد غير المسلمين في إسبانيا، وضد الهراطقة في أوروبا، بل وضد بعض المسيحيين الشرقيين، ما يدل على أن هذه المنظومة كانت أداة هيمنة دينية وسياسية بامتياز (قاسم ق.، ١٩٩٠، صفحة ٤٢)

## المبحث الثاني

## مجريات الحملات الصليبية ونتائجها العسكرية

تمثل الحملات الصليبية أحد أبرز التحولات المفصلية في التاريخ الإسلامي الوسيط، إذ لم تكن مجرد غزوات عسكرية عابرة، بل شكّلت صراعًا مركّبًا شمل الأبعاد السياسية والدينية والعسكرية، وامتد أثره إلى بنية الدولة الإسلامية ومفهوم الجهاد ذاته. ومنذ انطلاقتها في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، واجهت الأمة الإسلامية تحديًا وجوديًا استوجب استجابة استراتيجية متعددة المستويات. وقد اتخذت هذه الحملات طابعًا تصاعديًا، تجسّد في مراحل عسكرية متعاقبة، كان أبرزها الحملة الصليبية الأولى التي أدت إلى سقوط القدس وتأسيس الكيانات الصليبية في بلاد الشام، ثم الحملة الصليبية الثالثة التي مثلت ذروة الصراع بين العالمين الإسلامي والمسيحي بقيادة صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد.

يناقش هذا المبحث مجريات أبرز تلك الحملات العسكرية وتفاصيلها الميدانية، مركزًا على تحليل آثارها المباشرة وغير المباشرة على الوضع العسكري في العالم الإسلامي. كما يتناول التحولات التي طرأت على الفكر الاستراتيجي الإسلامي، واستجابة القيادات الإسلامية لتحدي الاحتلال عبر إعادة إحياء مفاهيم الجهاد وتوحيد الصفوف، وهو ما يتجسد بوضوح في النموذج القيادي لصلاح الدين الأيوبي. ومن خلال هذا التناول، يسعى المبحث إلى بيان الكيفية التي واجه بها المسلمون الهجمة الصليبية، والنتائج التي ترتبت على هذه المواجهة من حيث إعادة تشكيل القوة العسكرية وتكريس الوحدة السياسية في مواجهة الغزو.

### المطلب الأول: أبرز الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي

#### الفرع الأول: الحملة الصليبية الأولى وسقوط بيت المقدس

تُعد الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦–١٠٩٩م) البداية الفعلية لسلسلة طويلة من الحروب الصليبية التي شنّتها أوروبا الغربية ضد المشرق الإسلامي، وقد انطلقت نتيجة عوامل متشابكة دينية واقتصادية وسياسية. وقد لعبت الكنيسة الكاثوليكية دورًا رئيسًا في التحريض على هذه الحملة، إذ دعا البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م إلى تحرير "الضريح المقدس" في القدس من

أيدي المسلمين، مقدّمًا دعوته في إطار "حرب مقدسة" تكفل لمن يشارك فيها الغفران الكامل لذنوبه (قاسم ع.، ١٩٨٤، صفحة ٦٣)

استجابت الجماهير الأوروبية لهذه الدعوة بحماسة شديدة، فخرجت جموع من الفرسان والنبلاء والعامة، عُرفت باسم "جيش الرب"، بقيادة أمراء مثل جودفري دي بويون وبوهيموند وريمون الرابع. ويُلاحظ أن الحملة انقسمت إلى قسمين: حملة شعبية غير منظمة قادها بطرس الناسك وانتهت بالفشل في الأناضول، وأخرى منظمة ذات طابع عسكري نجحت في بلوغ الشام .

مع دخول الحملة إلى الأراضي البيزنطية، أخذت طبيعتها تتغيّر تدريجيًا من حملة دعم للمسيحيين الشرقيين إلى مشروع استيطاني توسّعي. وبعد السيطرة على نيقية ثم أنطاكية عام ١٠٩٨م، واصل الصليبيون زحفهم نحو الجنوب باتجاه القدس، التي خضعت حينها لحكم الدولة الفاطمية، وكان واليها "افتكين". بدأ الصليبيون حصار المدينة في حزيران/يونيو ١٠٩٩م ، واستمر الحصار نحو أربعين يومًا، عانوا خلاله من نقص المؤن وحرارة الطقس، قبل أن ينجحوا في اختراق الأسوار من الجهة الشمالية فجر يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩م (شابو، ٢٠٢٢، صفحة ٩٠) ما إن دخل الصليبيون المدينة، حتى ارتكبوا واحدة من أفظع المجازر في التاريخ الوسيط، حيث أبادوا الآلاف من السكان المسلمين واليهود، حتى غصّت شوارع القدس بالدماء، بحسب روايات المؤرخين المسلمين والصليبيين على حد سواء. يروي ابن الأثير أن "الفرنجة قتلوا في المسجد الأقصى وحده سبعين ألفًا"، بينما وصف ريموند أغيلز، أحد شهود العيان من الفرنجة، أن "الدماء بلغت رُكب الخيول"

بعد هذا الاحتلال الدموي، أعلن الصليبيون قيام مملكة بيت المقدس، وجعلوا من جودفري دي بويون "حامي القبر المقدس"، دون أن يحمل لقب "ملك"، احترامًا لما اعتبروه مكانة القدس الدينية. وقد تلتها إقامة ثلاث إمارات صليبية أخرى هي :أنطاكية، والرها، وطرابلس، وقد اتسمت هذه الكيانات بأنها ذات طبيعة عسكرية صليبية تقوم على الاستيطان والاعتماد على الإمدادات الغربية المستمرة .

كان لهذا الحدث أثرٌ عميق في الواقع الإسلامي من عدة جوانب. فمن الناحية السياسية، كشف عن ضعف وتفكك العالم الإسلامي في نهاية القرن الخامس الهجري، حيث كانت الشام مقسّمة بين سلاجقة وأتابكة وفاطميين متنازعين، ولم تكن هناك جبهة موحدة للتصدي للزحف القادم من أوروبا. ومن الناحية الدينية، مثّل سقوط القدس جرحًا معنويًا كبيرًا، إذ تُعد المدينة ثالث الحرمين

الشريفين، ومكان إسراء النبي محمد ﷺ، ما دفع علماء المسلمين وخطبائهم إلى إطلاق حملات تحريضية واسعة للرد على الغزو، وإحياء فريضة الجهاد التي بدأت تتبلور من جديد بوصفها سلاحًا روحيًا وعسكريًا في آنٍ واحد (ابن الأثير، ١٩٨٧، صفحة ٢٨) .

كما كانت الهجرة الجماعية التي أعقبت سقوط القدس دليلًا على فشل الدفاع الإسلامي المحلي آنذاك، إذ ترك عشرات الآلاف من السكان المسلمين منازلهم، وفرّوا إلى مصر وبلاد ما وراء النهر، بينما عمد الصليبيون إلى توطين عناصر نصرانية غربية محلهم، بهدف خلق قاعدة سكانية موالية للاحتلال. وبهذا، بدأ التغيير الديموغرافي الذي أفرغ المدن الساحلية من سكانها المسلمين، وترك أثرًا طويل الأمد في التركيبة الاجتماعية لمنطقة الشام ولم يقتصر تأثير الحملة على الجانب العسكري، بل ساهمت في إعادة تشكيل الوعي الإسلامي تجاه مفهوم "الدفاع عن المقدسات" وتحويله إلى التزام شرعي جماعي، تمخّض عنه لاحقًا صعود قيادات إسلامية موحدة مثل عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، الذين عملوا على توحيد الجبهة الإسلامية للرد على هذا الاحتلال. كما أن التجربة المريرة للحملة الأولى علّمت المسلمين دروسًا قاسية في أهمية التنظيم السياسي والوحدة المذهبية، خاصة في ظل الصراعات العباسية–الفاطمية التي مهدت الطريق للغزاة (ابن كثير، ١٩٨٩، صفحة ٦١) .

بناءً عليه، فإن الحملة الصليبية الأولى لم تكن مجرد عمل عسكري مفاجئ، بل كانت تحولًا استراتيجيًا في الصراع الإسلامي–المسيحي في العصور الوسطى. فقد دشّنت مرحلة جديدة من المواجهة مع الغرب الأوروبي، وغرست جذورًا طويلة للتدخل الغربي في المنطقة، وهو ما استمر حتى القرن الثالث عشر. كما أوجدت حالة من الاستفاقة العسكرية الإسلامية، سيما بعد أن أثبت الغزو إمكانية تكراره في حال بقيت الأمة في حال من التشرذم والتبعية.

الفرع الثاني: الحملة الصليبية الثالثة وصراع صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد

جاءت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩–١١٩٢م) كردّ فعل مباشر على الضربة القاصمة التي تلقتها القوى الصليبية في معركة حطين عام ١١٨٧م، والتي تمكّن فيها القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي من تحقيق نصر حاسم، مهّد الطريق لتحرير مدينة القدس من الاحتلال الصليبي الذي دام نحو تسعين عامًا. وقد كان لسقوط القدس وقع شديد في أوروبا الغربية، حيث سادت موجة من

الغضب الديني والسياسي دفعت بابا روما إلى دعوة عامة لخوض "حملة ثالثة" لاستعادة الأراضي المقدسة (عاشور، ١٩٧٩، صفحة ٢/٦٠) .

تميزت هذه الحملة بأنها كانت بقيادة أقوى ثلاثة ملوك في أوروبا آنذاك :الإمبراطور فريدريك بربروسا (ملك ألمانيا)، والملك ريتشارد قلب الأسد (ملك إنجلترا)، والملك فيليب أوغسطس (ملك فرنسا). إلا أن سير الحملة سرعان ما اعترضته سلسلة من الصعوبات؛ فقد لقي فريدريك بربروسا حتفه غرقًا في نهر "صاليق" في الأناضول أثناء طريقه نحو المشرق، وهو ما أدى إلى تفكك جيشه وعودة جزء كبير منه إلى ألمانيا. أما فيليب فقد انسحب لاحقًا بعد خلافات مع ريتشارد حول قيادة الحملة وتوزيع الغنائم، مما جعل ريتشارد يتحمل عبء الحملة وحده .

وصل ريتشارد إلى الساحل الفلسطيني في صيف عام ١١٩١م، وبدأ أولى عملياته بمحاصرة مدينة عكا، التي كانت لا تزال تحت السيطرة الإسلامية بعد أن حررها صلاح الدين عقب معركة حطين. واستمر حصار عكا ما يقارب عامين (١١٨٩–١١٩١م)، وكانت من أشد المعارك حصارًا في تاريخ الحروب الصليبية، حيث استبسل المسلمون في الدفاع عنها رغم قلة العدد والعتاد. ومع ذلك، نجحت القوات الصليبية في اختراق دفاعات المدينة بعد تعزيزات بحرية وجوية من أوروبا، واضطرت الحامية الإسلامية للاستسلام، لكن ريتشارد أقدم على إعدام أكثر من ٢٧٠٠ أسير مسلم بعد سقوط المدينة، وهو ما اعتبره المؤرخون الإسلاميون والفرنجة عملاً انتقاميًا يعكس توتره العسكري وفشله الاستراتيجي (ابن منقذ، ١٩٨١، صفحة ٣٠).

بعد السيطرة على عكا، بدأ الصراع المباشر بين ريتشارد وصلاح الدين، حيث اندلعت سلسلة من المعارك الحاسمة، أبرزها معركة أرسوف في أيلول ١١٩١م، التي دارت بين الجيش الصليبي الزاحف من يافا نحو الجنوب، وقوات صلاح الدين التي حاولت قطع الطريق عليه. ورغم أن ريتشارد تمكن من تحقيق نصر محدود، إلا أن قواته تعرضت لخسائر فادحة ولم تتمكن من مواصلة التوغل نحو القدس. كذلك كانت هناك مناوشات في جبل طابور وفي ضواحي الرملة، إلا أن القائد الإنجليزي بدا مترددًا في خوض معركة مفتوحة لاستعادة القدس، خوفًا من فشله في الاحتفاظ بها لاحقًا، نظرًا لطبيعتها المحصنة وموقعها البري غير الساحلي، وهو ما لا يخدم خطوط الإمداد البحري التي اعتمد عليها ، برز حنكة صلاح الدين السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة، إذ اتبع أسلوب الاستنزاف وعدم

التورط في معارك خاسرة، وفي الوقت ذاته حرص على الحفاظ على وحدة الجبهة الإسلامية التي باتت مهددة بتدخلات بعض القوى الطامحة في الداخل الشامي. وقد مارس صلاح الدين نوعًا من الحرب النفسية والدبلوماسية الذكية، حيث عرض هدنة على ريتشارد في أكثر من مناسبة، مع إبداء استعداده لتقديم تسهيلات للحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة دون التخلي عن القدس ذاتها (أبو شامة، ١٩٦٢، صفحة ٣٢).

أمام هذه الوقائع، توصّل الطرفان في صيف عام ١١٩٢م إلى توقيع "معاهدة الرملة"، التي نصت على:

- احتفاظ المسلمين بالقدس تحت السيادة الأيوبية.
- فتح المدينة أمام الحجاج المسيحيين الأوروبيين بحرية كاملة.
- بقاء الساحل الجنوبي من فلسطين بيد الصليبيين، وخاصة مدن يافا وعكا، مع السماح لهم بتثبيت وجودهم العسكري فيها.
- وقف القتال لمدة ثلاث سنوات بين الجانبين .

رغم أن هذه المعاهدة لم ترضِ الطموحات الصليبية المتطرفة في أوروبا، إلا أنها عُدت نصرًا استراتيجيًا لصلاح الدين، الذي تمكن من الاحتفاظ بالقدس وتثبيت الوجود الإسلامي فيها، مع تحييد القوة الصليبية إلى المدن الساحلية فقط. كما عُدّت هذه الحملة دليلًا على نضوج القيادة الإسلامية، إذ استطاع صلاح الدين أن يدير المعركة عسكريًا وسياسيًا بذكاء متوازن، ففاز بالنتائج الجوهرية دون التفريط بالمبادئ أو الوقوع في استنزاف عسكري خطير .

ويمكن القول إن الحملة الثالثة كانت نقطة تحول في ميزان القوى بين العالم الإسلامي والصليبي، حيث لم يتمكن الأوروبيون بعدها من استعادة القدس، وبقي وجودهم مقتصرًا على نطاق جغرافي محدود، مما مهد الطريق لانحسار المشروع الصليبي تدريجيًا في الشام. كما ساهمت هذه التجربة في رفع معنويات المسلمين، وتعزيز الثقة بقدرة الأمة على صدّ العدوان إذا توفرت القيادة الرشيدة والوحدة السياسية والعقيدة الجهادية الجامعة.

المطلب الثاني: أثر الحملات الصليبية على الوضع العسكري في الدولة الإسلامية

الفرع الأول: تطور الفكر العسكري الإسلامي واستراتيجية الجهاد

شكّلت الحروب الصليبية منذ انطلاقها في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي صدمة حضارية وعسكرية عميقة في الوعي الإسلامي، إذ كشفت عن ثغرات واضحة في الاستعداد الدفاعي، والتفكك السياسي، والجمود الفكري الذي أصاب بنية الدولة الإسلامية آنذاك. ومع استمرار الحملات الصليبية واتساع نطاقها، بدأت تظهر استجابات متباينة من العالم الإسلامي، تمثلت في تطور الفكر العسكري الإسلامي، وتجدد التأصيل الفقهي لمفهوم الجهاد، وتحول الخطاب من مجرد رد فعل عاطفي إلى مشروع مقاومة منظم ومدروس.

في المراحل الأولى، اتسمت معظم النصوص الإسلامية التاريخية بسرد الوقائع دون تحليل عميق للمعارك أو تشخيص لواقع الضعف الداخلي. غير أن هذه النظرة بدأت في التغير تدريجيًا مع تزايد وعي العلماء والقادة المسلمين بخطورة المشروع الصليبي، وضرورة مواجهة التحدي ليس فقط بالسلاح، بل أيضًا عبر إحياء الوعي الإسلامي العام، وتأصيل فقه المواجهة. وبرزت في هذا السياق الكتابات التي تدعو إلى النهضة الجهادية وتدين الركون إلى السلم أو التحالفات السياسية مع الغزاة .

من أبرز الشواهد على ذلك، ما ظهر في الأندلس خلال القرن السادس الهجري، حيث انتشرت البلاغات والمنشورات التي حثت أمراء المشرق والمغرب على الخروج للجهاد ونصرة المسجد الأقصى. ويذكر المؤرخون أن من أشهر هذه الرسائل رسالة بعنوان "تحفة الملوك"، التي وُجهت إلى الحكام تحثهم على النفير، جاء فيها: "خير لك أن تنفق العمر في رضا الله، وأن تموت شهيدًا على أن تستمر القدس في يد الكفرة"، وقد أضحت هذه الرسائل بمثابة بيانات تعبئة دينية وعسكرية توازي ما يمكن تسميته بـ"الخطاب الحربي الإسلامي" الذي يسعى إلى بناء قاعدة اجتماعية مؤيدة للجهاد (تغري بردي، ١٩٥٨، صفحة ٨٧).

إلى جانب ذلك، ظهرت مؤلفات فقهية متخصصة تؤصل للجهاد من منظور شرعي، وتعيد تعريفه لا بوصفه حربًا هجومية، بل دفاعًا عن حرمات المسلمين وأراضيهم. ومن بين أبرز الأسماء في هذا السياق أبو المحاسن بدر الجمالي، الذي كتب رسائل متعددة تُلزم الحكّام والعامة بالخروج للجهاد، وتنتقد من اختاروا الصلح مع الصليبيين دون مبرر شرعي .

وقد بلغ هذا التطور في الفكر العسكري ذروته في عهد صلاح الدين الأيوبي، الذي لم يكن مجرد قائد ميداني، بل مفكّر عسكري أعاد صياغة العلاقة بين الدين والسياسة والحرب. ومن الأمثلة

البارزة، الرسالة التي وجّهها إلى قاضي حلب، ابن عصرون، ينتقد فيها أمراء دمشق لأنهم عقدوا معاهدة سلام مع الصليبيين عام ١١٧٤م، مؤكدًا أن "السكوت على احتلال المقدسات هو خيانة للأمة" ، كما تضمّنت هذه الرسالة دعوة صريحة إلى حشد الطاقات الشعبية والدينية في معركة تحرير القدس، في الوقت الذي عمل فيه صلاح الدين على إصلاح الجيوش، وتوحيد المناهج الفقهية التي تحدد متى وكيف يُعلن الجهاد (أمين، ١٩٦٥، صفحة ٣٤).

كل ذلك يدل على أن الحروب الصليبية أحدثت نقلة نوعية في التفكير الاستراتيجي الإسلامي، فلم تعد الحروب تدار فقط بقوة السلاح، بل بدعم فقهي وشعبي واسع، يرتكز إلى شرعية دينية واضحة. وقد بدأ القادة والعلماء في استحضار نماذج السيرة النبوية، مثل غزوات بدر وأحد، في الخطاب العام، لإذكاء الروح المعنوية وتبرير التعبئة. كما توسعت مفاهيم مثل الرباط والحسبة العسكرية، وظهر لأول مرة ما يمكن تسميته بـ"التنظير العسكري الجهادي"، الذي يُزاوج بين الشرع والتخطيط العسكري .

ومن اللافت أن هذا التطور الفكري ترافق أيضًا مع نهضة فقهية وتنظيمية داخل المؤسسات السياسية والعسكرية للدولة الإسلامية، حيث أُنشئت أنظمة للوقف والجهاد، وتخصصت بعض المدارس في تخريج القادة الميدانيين على أسس علمية وأخلاقية، وظهر ما يسمى بـ"ديوان الجهاد" في بعض مناطق الشام والمغرب، كآلية تنظيمية لتسيير شؤون الدفاع والتعبئة .

في المحصلة، أدت الحملات الصليبية إلى نقلة حيوية في الفكر العسكري الإسلامي، انتقل فيها من التلقائية والعاطفة إلى الوعي والتخطيط، ومن ردود الفعل المتفرقة إلى مشروع جهادي مؤسسي ومتكامل. ولولا هذا التحول الجذري، لما استطاع المسلمون استعادة القدس في ظل موازين القوة التي كانت تميل في الغالب لصالح الصليبيين.

الفرع الثاني: توحيد الصف الإسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي كنموذج

مثّلت الحملات الصليبية تهديدًا وجوديًا للعالم الإسلامي، لم يكن بالإمكان مواجهته من خلال القدرات العسكرية فقط، بل من خلال بناء وحدة سياسية وعقائدية تضمن استمرارية المقاومة. وقد أدرك القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ / ١١٣٧-١١٩٣م) هذه الحقيقة منذ وقت مبكر، فأسّس مشروعًا وحدويًا يُعد من أبرز النماذج في التاريخ الإسلامي الوسيط، حيث نجح في توحيد

الصف الإسلامي المتشظي تحت راية الجهاد ومواجهة الغزو الصليبي (الشامي، دون تاريخ، صفحة ٥١) .

كان العالم الإسلامي حينذاك منقسمًا إلى دويلات متناحرة، أبرزها الدولة الفاطمية في مصر، والدولة الزنكية في الشام، فضلًا عن مراكز سلطة صغيرة في الموصل وحلب وغيرها، إضافة إلى الصراعات الطائفية بين السنة والشيعة، والانقسامات المذهبية بين الحنفية والشافعية والحنبلية. وقد استغل الصليبيون هذا الانقسام لتأسيس كياناتهم على السواحل، دون مقاومة فعالة في الداخل الإسلامي.

بدأ صلاح الدين مشروعه السياسي في مصر بعد أن أنهى حكم الفاطميين عام ١١٧١م، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي، مما أوجد إجماعًا مذهبيًا حول السلطة الجديدة .ثم توسّع باتجاه الشام تدريجيًا، حيث واجه مقاومة من بعض الأمراء المحليين الذين كانوا قد عقدوا معاهدات صلح مع الصليبيين، مثل أمير دمشق. وكان من أبرز المواقف الدالة على نهج صلاح الدين في الوحدة، رسالته الشهيرة التي وجّهها إلى قاضي حلب ابن عصرون عام ١١٧٤م، والتي انتقد فيها سكوت أهل دمشق عن التحالف مع الصليبيين، مؤكدًا أن "السكوت عن احتلال المقدسات خيانة لا تغتفر"، داعيًا إلى النفير والتوحيد في وجه العدوان .

وقد تميز صلاح الدين بدمج أدوات القيادة العسكرية بالشرعية الدينية، فحرص على استصدار فتاوى من كبار العلماء تؤكد مشروعية الجهاد ضد الصليبيين، كما قام بتأسيس مؤسسات تعليمية وقضائية تدعم خطابه الوحدوي، مثل المدرسة الصلاحية في القدس، والتي ضمّت علماء من مختلف المذاهب تحت سقف واحد ، وبهذا جمع بين شرعية القوة وشرعية النص، في تجربة فريدة جمعت السياسة والدين والجهاد في كيان واحد (يوسف، ١٩٨٣، صفحة ٣٦) .

من الناحية العسكرية، حرص صلاح الدين على توحيد الجيش الإسلامي من خلال دمج مقاتلين من مصر، والشام، والجزيرة، واليمن، بل وحتى من خراسان، ضمن قيادة موحدة. وكانت معركة حطين عام ١١٨٧م، التي مثّلت ذروة هذا المشروع الوحدوي، ثمرة لهذا التخطيط. فقد دخل الجيش الموحد بقيادة صلاح الدين المواجهة ضد الصليبيين بقوة مركّزة واستراتيجية محكمة، انتهت

بأحد أعظم الانتصارات في التاريخ الإسلامي، وأعادت مدينة القدس إلى السيادة الإسلامية بعد تسعين عامًا من الاحتلال .

بعد الانتصار في حطين، واصل صلاح الدين سياسة التحرير المنظم للمدن الصليبية دون الوقوع في الاستنزاف، ففتح عكا، وصيدا، وبيروت، وبيسان، ونابلس، ويافا، وغيرها. وقد تميّزت هذه الحملة بعدم الاعتماد فقط على الحرب، بل على الحصار المنهجي والضغط النفسي والدبلوماسي، مع فتح المجال للمدن للاستسلام مقابل الأمان، وهو ما يعكس إدراكًا سياسيًا متقدمًا لدى صلاح الدين وقد تعزّزت وحدة المسلمين خلال الحملة الصليبية الثالثة، حيث صمدت الجبهة الإسلامية في مواجهة الجيوش الأوروبية بقيادة ريتشارد قلب الأسد، رغم فارق الإمدادات والتسليح. وتمكن صلاح الدين من الموازنة بين الدفاع والهجوم، ورفض الانجرار إلى معركة خاسرة على أبواب القدس، مفضّلًا الحفاظ على الإنجاز دون المغامرة. وفي نهاية الحملة، وقّع مع ريتشارد معاهدة الرملة عام ١١٩٢م، والتي أقرت ببقاء القدس تحت الحكم الإسلامي وسمحت فقط للحجاج الأوروبيين بزيارتها (مؤنس، ١٩٨٧، صفحة ٦١) .

تُظهر هذه المعطيات أن تجربة صلاح الدين في توحيد الصف الإسلامي لم تكن ظرفية أو آنية، بل كانت مشروعًا استراتيجيًا متكاملًا اعتمد على توظيف الدين، والمؤسسات، والجيش، والفقه، والإعلام، في آنٍ واحد، ضمن رؤية واضحة لاستعادة زمام المبادرة من القوى الصليبية. وقد ألهمت هذه التجربة أجيالًا لاحقة من القادة المسلمين، وكان لها أثر عميق في الخطاب الجهادي والتحرري في العالم الإسلامي (المرجاني، ٢٠٠٨، صفحة ٧٣).

## المبحث الثالث

## التأثيرات السياسية والحضارية للحملات الصليبية

لايمكن تناول الحملات الصليبية بمعزل عن آثارها الممتدة التي تجاوزت الطابع العسكري إلى جوانب أكثر عمقًا وامتدادًا، تمسّ البنية السياسية للدولة الإسلامية ومظاهرها الحضارية والثقافية. فهذه الحملات لم تكن مجرد غزوات متقطعة انتهت بانسحاب الجيوش الصليبية من الأراضي الإسلامية، بل شكّلت محطة فارقة في التاريخ الإسلامي والأوروبي، أسهمت في إعادة تشكيل موازين القوى

السياسية في المشرق، وفتحت أبوابًا لتفاعل ثقافي – وإن كان قسريًا في بدايته – بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

فمن الناحية السياسية، أدّت الحملات الصليبية إلى إضعاف العديد من الكيانات الإسلامية القائمة، وكشفت عن هشاشة النظام السياسي الإسلامي آنذاك، مما دفع إلى ظهور قيادات جديدة وسلطات مركزية سعت إلى توحيد الصفوف وصدّ العدوان. وقد أسفر ذلك عن نشوء أنماط جديدة من الحكم، لا سيما الدول الزنكية والأيوبية والمملوكية، التي استطاعت أن تمثل حالة من الاستجابة الفعالة للخطر الصليبي.

أما من الناحية الحضارية، فقد أدّت الاحتكاكات المباشرة بين المسلمين والصليبيين إلى تبادل فكري وثقافي واسع، تجلّى في انتقال المعارف والعلوم من الشرق إلى الغرب، وفي الوقت ذاته ساهم في ترسيخ صور ذهنية متناقضة لدى الأوروبيين عن الإسلام، ما ترك أثرًا طويل الأمد في الوعي الغربي.

المطلب الأول: التأثيرات السياسية في العالم الإسلامي

الفرع الأول: زعزعة الاستقرار السياسي وضعف بعض الدويلات الإسلامية

عند مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، كانت الخلافة الإسلامية قد فقدت الكثير من تماسكها السياسي والعسكري، وبات العالم الإسلامي مسرحًا لتنازع القوى الإقليمية وتفتت السلطة المركزية. إذ لم تعد الخلافة العباسية في بغداد تملك من أمرها إلا الاسم، وتحولت إلى كيان رمزي يخضع فعليًا لسلطة السلاجقة من جهة، ويتنازعها النفوذ البويهي والفاطمي من جهة أخرى، وهو ما أدى إلى اختلال عميق في البنية السياسية العامة للعالم الإسلامي، لا سيما في المشرق العربي (برجاوي، ١٩٨٤، صفحة ٦٣).

شهدت هذه الفترة تدهورًا كبيرًا في دور الخلافة كمظلة جامعة للمسلمين، فقد تقاسمت السلطة السياسية كيانات محلية متعددة، مثل الدولة السلجوقية في المشرق، والفاطميين في مصر، والأتابكيات في الشام، وكل منها كانت تعمل بشكل مستقل عن الأخرى، وغالبًا ما كانت العلاقة بينها قائمة على الصراع والمنافسة أكثر من التنسيق والتعاون. في هذا المناخ الممزق ظهرت أولى الحملات الصليبية

عام ١٠٩٦م، لتجد أمامها عالمًا إسلاميًا مثقلًا بالخلافات والانقسامات، مما وفّر لها بيئة خصبة للتوغل والتمدد.

ولعل أبرز ما يميّز تلك الحقبة هو غياب المشروع السياسي الموحد لدى المسلمين. ففي الوقت الذي كان فيه البابا أوربان الثاني يعبّئ أوروبا بأسرها تحت راية "الحرب المقدسة" لتحرير القدس، كانت الإمارات الإسلامية منشغلة بصراعات داخلية لا تهتم كثيرًا بالخطر الصليبي الزاحف. فقد كانت كل إمارة – سواء في دمشق أو حلب أو الموصل – تنظر إلى الخطر القادم بمنظور ضيق، وتحركها في الغالب المصالح الإقليمية والولاءات القبلية والعائلية، لا فكرة الدفاع عن الأمة الإسلامية ككل وقد أدّى هذا التفتت السياسي إلى نتائج كارثية في البداية، إذ استطاع الصليبيون بسهولة احتلال عدد من المدن الإسلامية الرئيسية دون مقاومة موحدة. فسقطت أنطاكية في أيديهم عام ١٠٩٨م، ثم تلاها بيت المقدس في عام ١٠٩٩م، بعد أن واجهت الحامية الفاطمية هناك الحملات منفردة دون دعم يُذكر من باقي القوى الإسلامية. وهذا يُظهر بوضوح مدى ضعف البنية العسكرية والسياسية آنذاك، خاصة أن سقوط القدس – ثالث الحرمين – لم يكن كفيلًا بتوحيد الصفوف الإسلامية في بادئ الأمر، بل ظل الانقسام مستمرًا لعدة سنوات تالية (عاشور س.، ١٩٧٦، صفحة ٣٣).

ترافق هذا الانقسام السياسي مع حالة من الضعف الإداري والعسكري، فقد عانت الدويلات الإسلامية من عدم الاستقرار الداخلي، إذ كانت تغلب عليها الانقلابات العسكرية والنزاعات القبلية والنعرات الطائفية، لا سيما في ظل صراع الفاطميين الشيعة مع القوى السنية الصاعدة في الشام والعراق. وكان لغياب الأمن السياسي الداخلي أثر بالغ في تقويض جهود المقاومة. إذ لم تكن الجيوش الإسلامية تُدار من قيادة مركزية، ولم تتوفر لها خطة استراتيجية موحدة، وهو ما جعلها تتصرف كردود فعل جزئية ومشتتة في مواجهة حملة صليبية مدروسة ومتماسكة.

أما الخلافة الفاطمية في مصر، فقد مثّلت حالة نموذجية للضعف السياسي في تلك المرحلة، حيث كانت منهكة بالصراعات الداخلية على السلطة، وتتنازعها الولاءات المختلفة بين القادة العسكريين والوزراء. وعندما اقترب الخطر الصليبي من الشام وفلسطين، لم تكن القيادة الفاطمية تملك لا الإرادة ولا القدرة على التنسيق مع بقية القوى الإسلامية. بل إن بعض الروايات التاريخية تشير إلى أن

الفاطميين عرضوا التعاون مع الصليبيين ضد السلاجقة، مما يعكس مستوى التشظي والتضاد في الرؤى السياسية بين الفرقاء المسلمين.

وقد ساهم هذا التفكك السياسي في خلق فراغ استراتيجي كبير في بلاد الشام، أدى إلى سقوط العديد من المدن والموانئ الإسلامية بيد الصليبيين، مثل الرها وطرابلس وصيدا وبيروت. وبذلك تمكن الصليبيون من إقامة عدد من الإمارات الصليبية المستقلة في قلب العالم الإسلامي، مثل مملكة بيت المقدس، وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، وهي كيانات احتلالية ظلت قائمة لما يزيد عن قرن من الزمن، وأثرت بشكل مباشر في خريطة السلطة في المشرق (سهيل، دون تاريخ، صفحة ٥٣) .

إن فقدان الثقة بين الدويلات الإسلامية في تلك المرحلة، وغياب الحس الجماعي المشترك في الدفاع عن الأرض والدين، شكّلا بيئة مثالية للاحتلال الصليبي كي يرسّخ وجوده، ويعيد رسم المشهد السياسي في المشرق العربي وفقًا لمصالحه. ولم يبدأ التغيير الحقيقي في هذه المعادلة إلا عندما ظهرت قيادات إسلامية جديدة أدركت خطورة الوضع، وبدأت في العمل على توحيد الجبهات تحت راية الجهاد.

الفرع الثاني: تأثير الحملات الصليبية في صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب

شكّلت الحملات الصليبية لحظة تأسيسية في تشكيل الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين في المخيال الأوروبي، إذ لم تكن المواجهة العسكرية مع الشرق الإسلامي مجرّد صدام جيوش، بل كانت أيضًا صدامًا بين أنظمة رمزية وثقافية، أسهم بشكل كبير في ترسيخ تصورات نمطية عن الدين الإسلامي وأتباعه في الوعي الجمعي الغربي. فقد واكب هذه الحملات خطاب تعبوي ديني وسياسي مكثف، صاغته الكنيسة الغربية وكرّسته الأدبيات اللاهوتية والنصوص الشعبية والمرويات التاريخية الأوروبية، وصوّرت المسلم على أنه "عدو المسيحية"، و"الكافر الوثني"، و"البرابرة المتوحشون."

لقد لعبت الكنيسة الكاثوليكية، ممثلة بالبابوية ورجال الدين، دورًا محوريًا في بناء هذه الصورة، حيث استخدمت مصطلحات ذات طابع عدائي في توصيف المسلمين، من قبيل "الوثنيين"، و"أبناء الشيطان"، و"محطمي القبور"، وغيرها من التعبيرات التي لا تعكس واقعًا معرفيًا بل أيديولوجيا تم تعبئتها لخدمة أهداف الحملة الصليبية. وقد ساهم هذا الخطاب في تجريد الخصم الإسلامي من إنسانيته وتبرير العنف ضده، ما مكّن من ارتكاب مجازر دموية فادحة مثل تلك التي حصلت في

القدس عام ١٠٩٩م، عندما دخل الصليبيون المدينة وقتلوا الآلاف من سكانها من المسلمين واليهود على حدٍ سواء (عطية، ١٩٩٨، صفحة ١٦٣).

تُظهر الروايات الغربية لتلك المرحلة تصورًا مشوّهًا للإسلام، حيث تم توصيف القرآن بأنه "كتاب ضلال"، والنبي محمد ﷺ – والعياذ بالله – بأنه "مدّعٍ للنبوة"، كما أُلبست العقائد الإسلامية ثوبًا من السخرية والتشويه. وقد ترسخت هذه التصورات في المدونات الفكرية والأدبية الغربية مثل كتابات المؤرخ وليم الصوري، والمستشرقين الأوائل، الذين لم يكتفوا بوصف الإسلام في ضوء العداء الديني، بل ساهموا في ترسيخ صورة المغلوب ثقافيًا من خلال تصوير المسلم ككائن شهواني، عنيف، غير عقلاني، وغير قادر على بناء حضارة مستقلة.

ولم يكن هذا التأثير محصورًا بالخطاب الرسمي أو رجال الدين، بل امتد إلى الأدب والفنون والرموز الشعبية. فقد انتشرت في أوروبا الحكايات والقصص الخرافية التي تصوّر المسلمين ككائنات وحشية، تعبد أصنامًا وتقدّس الحرب والدم، وكانت تُعرض في المجالس والأسواق والكنائس، فتزيد من تعبئة المجتمع الغربي ضد الإسلام. كما رسخت الأناشيد الصليبية صورة العربي باعتباره الخصم الأبدي للمسيحي، ما أدى إلى خلق فجوة ثقافية ودينية استمرت لقرون، حتى بعد انتهاء الحملات الصليبية رسميًا.

وعلى الرغم من أن بعض الفرسان والعسكريين الذين احتكوا فعليًا بالمسلمين خلال الحملات قد نقلوا مشاهدات مغايرة – وأعجبوا أحيانًا بنظام الدولة الإسلامية، وعدالة بعض سلاطينها كصلاح الدين الأيوبي – إلا أن هذه الصورة الإيجابية بقيت محصورة في دوائر ضيقة ولم تؤثر كثيرًا في الاتجاه العام للرأي الأوروبي، الذي ظل مشبعًا بروح العداء والريبة من الإسلام. بل إن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن الحملات الصليبية كانت وراء التأسيس الأول لفكرة "الإسلام وفوبيا "في أوروبا، والتي تطورت لاحقًا في العصور الحديثة تحت مسميات ثقافية وسياسية جديدة، لكنها تستند في جوهرها إلى الصورة النمطية نفسها التي نشأت زمن الحروب الصليبية (عقلة و الطواهية، ٢٠١٧، صفحة ٨٤).

كما أن فقدان التوازن في الخطاب التاريخي الذي تم تبنيه لاحقًا في المدارس والجامعات الأوروبية ساهم في تعميق هذا التشويه، إذ تم تصوير المسلمين على أنهم المعتدون في كثير من

الأحيان، بينما جرى تصوير الحملات الصليبية بوصفها "بعثات تحريرية" تهدف إلى استعادة الأماكن المقدسة من أيدي "الغزاة". وقد استمر هذا التشويه في العديد من المؤلفات الغربية حتى القرن التاسع عشر، حين بدأت بعض الأقلام المنصفة بإعادة النظر في الروايات التاريخية وإبراز الأبعاد الحضارية للعالم الإسلامي خلال فترة الحملات الصليبية.

ومع ذلك، فإن أثر هذه الصورة النمطية ما زال قائمًا في الذهنية الغربية إلى اليوم، حيث تتجدد أنماط "شيطنة الإسلام" في بعض الأدبيات السياسية والإعلامية، ويُعاد توظيف موروث الحروب الصليبية في الخطاب السياسي المعاصر، كما في خطاب جورج بوش الابن بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حين وصف حربه على الإرهاب بـ"الحرب الصليبية"، وهو ما يدل على مدى رسوخ هذا الرمز التاريخي في المخيال الغربي واستمراريته بوصفه عدسة مشوهة لفهم الإسلام (علي السيد، ١٩٩٨، صفحة ٧٧).

المطلب الثاني: التأثيرات الحضارية والثقافية المتبادلة

الفرع الأول: التبادل الثقافي والمعرفي بين الشرق والغرب

رغم أن الحملات الصليبية كانت في ظاهرها حملات عسكرية ودينية، فإنها أفرزت نتائج حضارية وثقافية لا تقل أهمية عن نتائجها السياسية والعسكرية. فقد أسفرت عن تواصل مباشر بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وهو تواصل اتخذ في بدايته طابع الصراع والعداء، غير أنه مع مرور الوقت أنتج نوعًا من التبادل الثقافي والمعرفي غير المسبوق، أسهم في إثراء الحضارة الغربية، وأعاد تشكيل علاقات الشرق والغرب على أسس جديدة.

كانت الحروب الصليبية بمثابة جسر غير مقصود لنقل معارف الشرق الإسلامي إلى أوروبا الغربية التي كانت آنذاك تعيش في ظلال العصور الوسطى المظلمة، بينما كان العالم الإسلامي في ذروة ازدهاره العلمي والثقافي. فقد تعرف الصليبيون من خلال احتكاكهم المباشر بالمسلمين على جوانب متعددة من الحضارة الإسلامية، مثل نظام الحكم، أساليب التحصين، الطب، الفلك، الفلسفة، الرياضيات، الهندسة، والعمارة. وقد أثارت هذه المعارف إعجاب بعضهم، ودفعهم إلى محاولة نقلها إلى مجتمعاتهم بعد عودتهم إلى أوروبا.

لقد بدأت ملامح هذا التبادل في الظهور من خلال الاحتكاك اليومي في المدن الإسلامية التي احتلها الصليبيون، خاصة في القدس وأنطاكية وطرابلس. فقد عاش عدد من الصليبيين لسنوات طويلة بين المسلمين، واكتسبوا معرفة باللغة العربية، واطلعوا على الكتب والمخطوطات التي زخرت بها المكتبات الإسلامية. بل إن بعض رجال الدين المسيحيين والفرسان كانوا يطلبون من المترجمين المحليين ترجمة كتب الطب والفلك والمنطق من العربية إلى اللاتينية، وقد أدى ذلك إلى نقل كمّ هائل من المعرفة الإسلامية إلى أوروبا وكان من أبرز المجالات التي تأثرت أوروبا بها نتيجة هذا التبادل، مجال الطب والصيدلة .فقد أُعجب الأوروبيون بمستوى المستشفيات الإسلامية، ونظام التمريض، وتصنيف الأدوية، والطريقة التجريبية في العلاج، وهو ما ساهم لاحقًا في تطوير المدارس الطبية الأوروبية. كما تأثرت الجامعات الغربية الوليدة مثل جامعة بولونيا وأوكسفورد بأعمال علماء المسلمين أمثال ابن سينا والرازي والزهراوي، وقد تُرجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية واعتمدت مرجعًا لقرون (قاسم ع.، الحرب الصليبية الأولى نصوص ووثائق، ٢٠٠١، صفحة ١٠٣).

كذلك نقل الأوروبيون عن المسلمين نظام الأرقام العربية (التي أصلها هندي)، وعلم الجبر الذي أسسه الخوارزمي، مما أحدث ثورة في علم الرياضيات الأوروبي. كما استفادوا من الفكر الفلسفي الإسلامي، وخاصة أعمال الفارابي وابن رشد وابن سينا، التي شكّلت جسرًا لنقل فلسفة أرسطو وأفلاطون، بعد أن أعاد الفلاسفة المسلمون صياغتها وتفسيرها ضمن رؤيتهم الإسلامية. ويُعتبر ابن رشد على وجه الخصوص من أهم الجسور الفكرية بين الإسلام والغرب، فقد أثّر تأثيرًا عميقًا في فلسفة العصور الوسطى، وأُطلق عليه في أوروبا اسم *Averroes*، واعتمدت الجامعات الكاثوليكية شروحه لفهم أرسطو و كما كان علم الفلك الإسلامي من أبرز ما جذب الأوروبيين، نظرًا لدقته وارتباطه بالعلوم الرياضية. فقد تعرف الغرب من خلال المسلمين على الأسطرلاب، ودورات الكواكب، وحسابات الكسوف والخسوف، واستفادوا من الجداول الفلكية التي وضعها علماء الأندلس وبغداد. وقد لعبت الأندلس، بحكم موقعها الجغرافي، دورًا محوريًا في نقل هذه المعارف من العالم الإسلامي إلى أوروبا، خصوصًا من خلال مراكز الترجمة في طليطلة، التي كانت من أهم بوابات التبادل المعرفي في تلك المرحلة.

ولم يكن التأثير مقتصرًا على العلوم البحتة فحسب، بل شمل أيضًا الجانب الفني والمعماري . فقد تأثر المعماريون الأوروبيون بالأساليب الإسلامية في بناء القلاع والحصون، وبدأوا في تبنّي النوافذ المعقودة، والقباب، والزخارف الهندسية، وهو ما يمكن رصده في بعض كنائس أوروبا التي أنشئت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد حملت عناصر تصميمية ذات طابع أندلسي أو شرقي. كما ظهرت تأثيرات العمارة الإسلامية في استخدام الفناء الداخلي والنوافير والأقواس المستديرة.

وعلى الجانب الإسلامي، لم يكن التأثير منعدمًا. صحيح أن المسلمين كانوا الطرف المتفوق حضاريًا وعلميًا في تلك المرحلة، إلا أنهم استفادوا في بعض المجالات، خصوصًا العسكرية. فقد احتك المسلمون بالتقنيات الحربية الأوروبية، كأنواع المنجنيقات وآلات الحصار، كما تأثروا ببعض أشكال التنظيم العسكري. بل إن بعض القلاع الإسلامية بُنيت لاحقًا على نمط الحصون الصليبية، كما حدث في قلعة صلاح الدين الأيوبي في القاهرة، التي استعان في تصميمها ببعض الأسرى الصليبيين من المهندسين والبنّائين، فإن العلاقات الاقتصادية التي نشأت بشكل جزئي خلال فترات الهدنة أسهمت في تنشيط التجارة بين الشرق والغرب .فقد ازدهرت حركة التبادل التجاري بين الموانئ الإسلامية في الشام ومصر، والموانئ الإيطالية مثل جنوة والبندقية وبيزا. وانتقل من الشرق إلى الغرب منتجات عديدة كالتوابل، السكر، الأقمشة الفاخرة، العطور، الورق، بل وحتى بعض أنواع الفاكهة والأزهار. وفي المقابل دخلت إلى العالم الإسلامي بضائع أوروبية، كما انتقلت بعض النظم التجارية والمحاسبية (قاسم ع.، ماهية الحروب الصليبية، ١٩٨٤، صفحة ٣٠).

ومما يستحق الوقوف عنده أيضًا أن هذا التبادل الثقافي والمعرفي لم يكن دائمًا سلميًا أو واعيًا، بل في كثير من الأحيان تم تحت ضغط الهيمنة، أو عن طريق الغنائم، أو عبر الترجمات التي جرت دون استئذان. ومع ذلك، فقد أدى هذا التفاعل إلى تشكل وعي متبادل، وتغيّر تدريجي في النظرة الغربية إلى الشرق، على الأقل في أوساط النخبة الفكرية، التي بدأت تدرك أن الإسلام ليس دينًا للعنف، بل دين حضارة وفكر وعلم.

الفرع الثاني: تأثير الحملات الصليبية في صورة الإسلام والمسلمين لدى الغرب

أثّرت الحملات الصليبية بشكل بالغ في تشكيل الصورة الذهنية عن الإسلام والمسلمين في الوعي الأوروبي الوسيط، إذ لم تقتصر هذه الحملات على المواجهة العسكرية، بل رافقها خطاب ديني

وثقافي مركّب، ساهم في تشويه صورة الإسلام وتثبيت صور نمطية سلبية ظلّت حاضرة في الفكر الأوروبي لقرون لاحقة. فقد استندت التعبئة الصليبية التي دعا إليها البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م، إلى تقديم الإسلام كـ"دين باطل" وأتباعه كـ"أعداء الرب"، وهي صورة لم تكن جديدة تمامًا، لكنها ترسخت وتوسعت بشكل أكبر بفعل الخطاب الصليبي العسكري (طقوس، ٢٠١٠، صفحة ١٣٩).

لقد وظّفت الكنيسة الغربية أدواتها اللاهوتية والدعائية لتكريس هذه الرؤية، فجرى تصوير النبي محمد ﷺ – زورًا – كمهرطق ومدّعٍ للنبوة، وتم اعتبار القرآن كتابًا مناقضًا للوحي، وديانة الإسلام باعتبارها "دين السيف". ومن خلال هذا التصوير، أصبح القتال ضد المسلمين يُقدَّم للشعوب الأوروبية لا كمجرد حرب سياسية، بل كفريضة دينية يُثاب عليها المرء في الدنيا والآخرة، مما منح الحروب الصليبية بُعدًا قدسيًا ضاعف من مشاعر الكراهية والعداء تجاه الإسلام.

هذا التأطير الديني المعادي انعكس في مختلف مجالات الإنتاج الثقافي والفني في أوروبا، من الخطب الدينية إلى الأدب الشعبي، ومن المخطوطات الكنسية إلى التراتيل والأناشيد الصليبية. فقد أُنتجت مئات القصص والحكايات التي تم فيها تصوير المسلمين كوثنيين، يعبدون أصنامًا، أو كجماعة همجية لا عهد لها ولا دين. وبرزت شخصية "السرّازين (Saracens) "في الأدب الأوروبي باعتبارها النموذج الأبرز للعدو، وغالبًا ما كانت تُقرن بالبربرية والوحشية والخيانة وقد عززت هذه النظرة ما دوّنه مؤرخو الحروب الصليبية مثل وليم الصوري، الذي وثّق سير الحملات من وجهة نظر مسيحية بحتة، متغاضيًا عن التعددية الثقافية والدينية التي كانت سائدة في المجتمعات الإسلامية، ومساهمًا في خلق تصور ثنائي حاد بين "الخير المسيحي" و"الشر الإسلامي". بل إن بعض الروايات الصليبية كانت تفتعل قصصًا عن "طقوس دموية" يمارسها المسلمون، أو تنسب إليهم أفعالًا لا صلة لها بالواقع، في محاولة لبناء مبررات أخلاقية للعنف الصليبي (قاسم ع.، الحرب الصليبية الأولى نصوص ووثائق، ٢٠٠١، صفحة ٦٣).

ورغم أن بعض القادة الصليبيين – مثل ريتشارد قلب الأسد – احتكوا بشكل مباشر مع المسلمين، وتحديدًا مع صلاح الدين الأيوبي، وشهدوا له بالكرم والخلق والتسامح، فإن هذه الصورة لم تكن كافية لتغيير الرؤية العامة، بل بقيت محدودة في النطاق العسكري، ولم تصل إلى العامة أو رجال

الدين الذين كانوا يوجّهون الرأي العام. حتى أن بعض المؤرخين يرون أن هذه العلاقة الشخصية بين ريتشارد وصلاح الدين كانت تُستغل لاحقًا لتأكيد "الاستثناء" لا القاعدة، أي أن الصليبيين كانوا يعترفون بفضائل "الفرد المسلم النبيل"، لكنهم أبقوا على صورة الإسلام الجماعي كخطر وجودي.

ومع تواصل الحملات الصليبية، ترسخت الصورة النمطية للإسلام في الذهن الأوروبي، وأصبحت جزءًا من الخطاب السياسي والثقافي في العصور الوسطى .بل إن هذا التصور ظل مؤثرًا حتى بعد انحسار الحروب الصليبية، وظهر لاحقًا في كتابات الرحالة والمستشرقين في العصور الحديثة. فقد تبنّى العديد من الرحالة الأوروبيين فكرة "الشرق المسلم الغامض والمخيف"، واستمرت الأدبيات الغربية في التعامل مع الإسلام كـ"آخر" متناقض مع قيم الغرب، وهي رؤية غذّاها الإرث الصليبي بعمق.

ومن أخطر ما خلّفته الحملات الصليبية على هذا الصعيد، أنها أسست أولى البذور لما يُعرف لاحقًا بالإسلام وفوبيا .إذ أصبح الخوف من الإسلام، وربطه بالتطرف والعنف، جزءًا من المخزون اللاوعي للثقافة الغربية، يظهر في أوقات الأزمات ويتغذى من الصور التاريخية المشوّهة. وقد شهدت القرون التالية استخدام هذه الصور في الحملات السياسية، وحملات التبشير، والاستعمار، وصولًا إلى الخطابات المعاصرة التي تعيد إنتاج ذات المفاهيم بوسائل إعلامية حديثة (المطوي، ١٩٨٢، صفحة ٧٤).

لكن من الجدير بالذكر أن بعض المفكرين الغربيين، بدءًا من العصور الحديثة، حاولوا إعادة النظر في هذه الصورة، فبرزت دراسات أكاديمية أكثر توازنًا تسعى لفهم الإسلام في سياقه الحضاري والفكري. وقد ساعدت الترجمات الحقيقية للقرآن الكريم، والانفتاح على الفلسفة الإسلامية، في تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة، وإن ظلت هذه الجهود محصورة في النخب العلمية والفكرية، ولم تنجح كليًا في تغيير الرأي العام الغربي الذي تشكل وجدانيًا في سياق الصراعات الصليبية.

الخاتمة

إنَّ دراسة الحملات الصليبية تكشف بوضوح عن تعقيدات العلاقة بين الشرق والغرب خلال العصور الوسطى، حيث لم تكن تلك الحملات مجرد حروب دينية عابرة، بل كانت مشاريع توسعية شاملة، جمعت بين البعد العقائدي والدوافع الاقتصادية والسياسية. لقد شكّلت هذه الحملات نقطة تحوّل

تاريخية في مصير الدولة الإسلامية، وفرضت واقعًا سياسيًا وعسكريًا وثقافيًا جديدًا استمر أثره قرونًا بعد انتهائها.

وقد بيّن البحث في مباحثه المتعددة أن السياقات التي أدّت إلى اندلاع هذه الحملات كانت مركّبة، فقد ساهمت الظروف الدينية في أوروبا، متمثلة في تنامي هيمنة الكنيسة وتوظيف مفاهيم "الخلاص" و"الحرب المقدسة"، في تعبئة الشعوب الأوروبية للقتال تحت راية الصليب. كما أدّت الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى خلق دافع داخلي قوي لتصدير الأزمة نحو الخارج، حيث بُنيت حملات عسكرية على أسس عقائدية ظاهرية ومصالح مادية ضمنية.

في ضوء ذلك، تناول البحث أبرز محطات هذه الحملات، مثل الحملة الصليبية الأولى وسقوط بيت المقدس، والحملة الثالثة التي شهدت الصراع الشهير بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، حيث تميّزت تلك المرحلة بتحولات عسكرية كبرى، وأظهرت القدرة الإسلامية على تنظيم الدفاعات، وتوحيد الصفوف، وتطوير الفكر الاستراتيجي العسكري.

كما خلُص البحث إلى أن الحملات الصليبية تركت آثارًا بعيدة المدى على الدولة الإسلامية، منها:

- إنهاك الموارد البشرية والاقتصادية.
- إضعاف بعض الدويلات الإسلامية وتفككها.
- نشوء قيادات إسلامية قوية توحيدية، مثل صلاح الدين الأيوبي.
- إحداث شكل من أشكال التبادل الثقافي بين الشرق والغرب، رغم طابع العنف.

وعلى الرغم من الانقسامات التي كانت سائدة في العالم الإسلامي آنذاك، إلا أن تلك التحديات أسهمت في خلق حالة من الوعي الجمعي بوحدة المصير، انعكست في توحيد الصفوف وتشكيل جبهات مقاومة واسعة.

التوصيات:

١- ضرورة إعادة قراءة التاريخ الصليبي بموضوعية، بعيدًا عن الخطابات المشحونة دينيًا أو سياسيًا، لفهم السياق التاريخي والمعرفي المتبادل.

٢- تعزيز الدراسات المقارنة بين الروايات الإسلامية والغربية للحملات الصليبية، بهدف الوصول إلى تصور أكثر توازنًا للحدث.

٣- الاستفادة من دروس الوحدة التي فرضتها الحروب الصليبية، في بناء مفاهيم التماسك والتكامل داخل العالم الإسلامي المعاصر.

٤- تشجيع الأبحاث الأكاديمية التي تدرس تأثير الحملات الصليبية في جوانب غير عسكرية، كالثقافة والعمارة والتجارة.

٥- توظيف هذا التاريخ في تعزيز الحوار الحضاري، لا الصراع، بين الشرق والغرب، من منطلق الوعي التاريخي العميق وليس من منطلق الكراهية والانتقام.

المصادر:

١. أ. ن. الطاهري. (المجلد ٣ العدد ١، ٢٠٠٦). آثار الحروب الصليبية في الجغرافية الشرقية الإسلامية. مجلة دراسات في الإسلام والشرق الأوسط.

٢. أحمد الشامي. (دون تاريخ). تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى. بيروت: دار النهضة.

٣. أسامة ابن منقذ. (١٩٨١). سيرة ابن منقذ. دمشق: دار الفكر.

٤. أمين معلوف. (١٩٨٣). الحروب الصليبية كما رآها العرب. بيروت: دار الفارابي.

٥. تغري بردي. (١٩٥٨). الفيض القدسي في أنباء بيت المقدس (الطبعة ١). القاهرة: دار الثقافة.

٦. توفيق الواعي. (١٩٩٣). الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية. بيروت: دار المركز الثقافي العربي.

٧. جوزيف نسم يوسف. (١٩٨٣). العرب والروم في الحروب الصليبية الأولى. بيروت: دار النهضة العربية.

٨. ح. حبشي. (٢٠٠٠). الحروب الصليبية الثالثة. (ترجمة وتعليق: صلاح الدين وريتشارد) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٩. حسن حبشي. (١٩٥٨). الحروب الصليبية ١٠٩٦-١٢٩١. القاهرة: دار الفكر العربي.

١٠. حسين أحمد أمين. (١٩٦٥). الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها. القاهرة: دار المعرفة.

١١. حسين مؤنس. (١٩٨٧). أطلس تاريخ الإسلام (الطبعة ١). القاهرة: الزهراء للإعلام العربي.

١٢.راغب المرجاني. (٢٠٠٨). قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين الزنكي (الطبعة ١). القاهرة: مؤسسة اقرأ.

١٣.سعيد أحمد برجاوي. (١٩٨٤). الحروب الصليبية في المشرق (الطبعة ١). بيروت: دار الآفاق الجديدة.

١٤.سعيد عاشور. (١٩٧٦). تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. بيروت: دار النهضة العربية.

١٥.شمس الدين ابن كثير. (١٩٨٩). البداية والنهاية. (تحقيق: سليمان المطي) بيروت: دار الكتب العلمية.

١٦.طقوش سهيل. (دون تاريخ). تاريخ الحروب الصليبية حروب الفرنجية في المشرق (٥٨٩-٦٩٠م ١٢٩١، ١٤٣٢-٢٠١١م). دار الفائس.

١٧.عاشور. (١٩٧٩). تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب . القاهرة: دار الفكر العربي.

١٨.عبده قاسم قاسم. (١٩٨٤). ماهية الحروب الصليبية. القاهرة: دار الهلال.

١٩.عبده قاسم قاسم. (٢٠٠١). الحرب الصليبية الأولى نصوص ووثائق. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

٢٠.عز الدين ابن الأثير. (١٩٨٧). الكامل في التاريخ. (تحقيق: محمود شاكر) بيروت: دار العلوم.

٢١.عزيز سوريال عطية. (١٩٩٨). الحروب الصليبية والعلاقات بين الغرب والشرق (المجلد ٢). القاهرة: دار الثقافة.

٢٢.عصام مصطفى عقلة، و فوزي خالد الطواهية. (المجلد ١١، العدد ٣، ٢٠١٧). زيارة العلماء للقدس في ظب احتلال الفرنجي .الصليبي. المجلة الاردنية للتاريخ والآثار.

٢٣.علي السيد. (١٩٩٨). الخليل والحرم الابراهيمي في عصر الحروب الصليبية ٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م (الطبعة ١). القاهرة: دار الفكر العربي.

٢٤.علي محمد الصلابي. (٢٠١٢). الجذور التاريخية للحروب الصليبية. الرياض: مكتبة العبيكان.

٢٥.ق. ع. قاسم. (١٩٩٠). ماهيّة الحروب الصليبية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٢٦.م. ع. أبو شامة. (١٩٦٢). المعاهدات بين المسلمين والصليبيين. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٧. محمد سهيل طقوس. (٢٠١٠). تاريخ الحروب الصليبية (الحروب الفرنجة في الشرق) . بيروت: دار النفائس.

٢٨. محمد مؤنس عوض. (٢٠٠٠). الحروب الصليبية ، العلاقات بين الشرق والغرب. القاهرة: عين للدراسات والبحوث.

٢٩. محمود العروسي المطوي. (١٩٨٢). الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (الطبعة ١). تونس: دار الغرب الإسلامي.

٣٠. محمود سعيد عمران. (٢٠٠٠). تاريخ الحروب الصليبية (١٠٩٦-١٢٧٠). القاهرة: دار النهضة العربية.

٣١. و. و. بوزهير.ا شابو. (٢٠٢٢). أثر الصراع الإسلامي الصليبي في بلاد الشام على الحياة الاجتماعية والدينية خلال القرن السادس عشر - الأول للهجرة. رسالة ماجستير.

٣٢. يوسف العاصي الطويل. (٢٠٠٨). الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم. بيروت: دار الفكر العربي.